بذور الأدب المقارن
عند نقادنا القدامى

الفكر المقارن عند الجاحظ فى أدب (البيان والتبيين)

د / محمد محمد إبراهيم بظاظو
مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية
بإيتاى البارود

ذو القعدة ١٤٢١ هـ فبراير ٢٠٠١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد ،

فإن حقل الدراسات الأدبية المقارنة لا يزال فى حاجة إلى المزيد من العطاء ، وبخاصة عندنا نحن العرب ، وربما كان جل اعتمادنا فيه على عطاءات الغرب ، ولذا أحببت أن أعود إلى تراثنا الأدبى ، وأغوص فى أغواره ، وأبحث فى أعماقه عن بذور الفكر المقارن لدى نقادنا القدامى ، من العمالقة ، وقد اخترت " أبا عثمان الجاحظ " نظراً لموسوعيته المعرفية ، التى تشهد له بها كتبه ، كما أنه عاش فى زهرة العصر العباسى ، الذى انصهرت فى بوتقته عطاءات المعرفة الإنسانية ، والتراث الفكرى والأدبى لأمم مختلفة ، انضوت تحت لواء الخلافة العباسية ، واستظلت بظلالها .

ولاشك أن البحث فى كتب الجاحظ مُضْنٍ ، يتطلب نفساً طويلا ، وصبراً جميلا ، لطبيعته كتبه الموسوعية ، ونسقه الاستطرادى ، الذى لا يكاد يلتزم نهجاً محدداً ، ولا موضوعاً موحداً ، وقد راجعت كتاب الجاحظ " البيان والتبيين " مستقصياً جميع ما ورد فيه تقريبا ، مما يمكن أن يعد بذوراً للفكر المقارن ، كما مهدت لذلك باستقصاء أغلب المواضع التى تشهد لتناول الجاحظ بالموسوعية ، والعطاء الفياض ، وشمولية الرؤية ، وكسر غل التقوقع على النفس واجترار ما قاله أدباؤنا ممن سبقوه .

ولقد حاولت بذلك أن أفتح باباً جديداً ، ربما لا أكون خطـــوت فيـــه سوى خطوات قليلة ، تحتاج بلا شك إلى خطوات أخرى أوســـع ، عســـى أن يكون فى ذلك إثراء لدراستنا الأدبية المقارنة ، تضعنا فى مكاننا اللائق بنا فى عالم الفكر الإنسانى ، وتشهد لنا أننا أمة عالمية الرسالة ، موسوعية العطاء المعـــرفى ، وأن فكرنا النقدى ، فى فترات ازدهارنا ، عَبَر إقليميته ، وتخطى حاجز النظـــرة الضيقة ، إلى رحبات الفكر الإنسانى بتنوع صوره وأشكاله .

ولكل محاولة رائدة أخطاؤها ، التى أستميح القارئ الكريم عذراً منـــها ، وحسبى أنى بذلت جهدى ، والله من وراء القصد ، وهو الموفـــق والهـــادى إلى سواء السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الفكر المقارنى عند الجاحظ من ثمار موسوعيته المعرفية

من المميزات الواضحة لفكر الجاحظ ، وبخاصة فى كتابه " البيان والتبيين " – موسوعية المعرفة ، وشمول الرؤية ، ورحابة ميدان التناول للقضية التى يعالجها ، وغزارة وتنوع مادة الاستشهاد والتمثيل والاستدلال .

ولاشك أن هذه السمة ، أثر من آثار قراءاته التى لا تكاد تحصر ، وشواهد ذلك فى حياته ماثلة للعيان ، فقد ولد بالبصرة إحدى المدن الكبرى فى العصر العباسى ، وذات الأثر البالغ فى حياتنا اللغوية والأدبية بما كانت تشهده من نشاط زاخر فى العلوم والآداب معاً ، فى وقت هو من أزهى عصورنا الأدبية ، إن لم يكن أزهاها على الإطلاق ، كما أنه ولد عام ١٥٩ هـ فى بداية عهد الخليفة المهدى ، وتوفى عام ٢٥٥ هـ فى بداية عهد المهتدى بالله ، وهى فترة ماجت فيها الدولة العباسية الفتية بمختلف روافد المعرفة الإنسانية ، من كافة حضارات العالم المعروفة فى ذلك الوقت ، وهم الفرس والروم والهند بالإضافة إلى العرب ، وهم الأمم المذكورة فى ذلك الوقت – حسب رؤية الجاحظ – إذ يقول (وإنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب ، وفارس ، والهند ، والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج) [1] .

وقد رحل الجاحظ من البصرة إلى بغداد ، وأقام بها فترة غير قصيرة ، كانت بغداد حينئذ حاضرة الدنيا ، وملتقى حضارات العالم ، ومصب روافد العلوم وثمار القرائح والعقول ، من حكمة الهنود ، وفلسفة الرومان ، وسياسة الفرس ، وآداب العرب .

---

(١) البيان والتبيين ١٣٧/١ ، تحقيق عبد السلام هارون ، طـ ٥ ، مكتبة الخانجى سنة ١٩٨٥ .

ومما يذكر هنا حركة الترجمة التى نشطت فى تلك الفترة ، فانتقلت بهـــا كثير من هذه المعارف إلى العقل العربى ، الذى كان حقيقا باستيعابها ، وصـهرها فى بوتقته ، وصياغتها صياغة جديدة ، تظهر فيها قدرته على التأليف بينـــها ، باعتبارها عطاءً إنسانياً معرفياً ، يتخطى حواجز الجنس واللون والدم واللغـــة ، بل يتجاوز حدود العقيدة ، ليلتقى فى معين الحضارة الإســـلامية الإنســانية ، وكذلك يجب أن تكون نظرتنا إلى دورنا الحضارى بين الأمم ، فنخـــرج مـــن حدود الإقليمية إلى العالمية ، ومن التقوقع والتمحور حول أنفســـنا واجـــترار القديم من نتاجنا ، إلى الانفتاح على العالم من حولنا ، أخذاً وعطـــاءً ، هضمـــاً واستيعاباً ، انتقاءاً وتمييزاً ، انطلاقاً من دور الشهداء والموجهين ، لا التـــابعين المتلقين .

أما الاستعداد الخاص عند الجاحظ ، والذى ميزه من بين نقاد عصـره ، بعالمية النظرة ، وشمولية الرؤية ، فهو همه المعرفىَ الذى طبق فيه تعريفه لـــلأدب بأنه (الأخذ من كل شئ بطرف) ؛ فقد روى عنه أنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، فكان عينا ساهرة لا تغفو إلا على كتاب ، ولا تُفيق إلا علـــى كتاب ، بالإضافة إلى صلته القوية بالمترجمين ، مع قدراته الذهنية المتميزة ، مـــن قوة الحفظ ، وحدة الذكاء ، وسطوع البرهان ، وســـرعة البديهـــة ، وكأنمـــا أعاضته الأقدار عن منظره البشع وعينيه الجاحظتين ، ذهناً صافيا وعقلاً ألمعيا .

ومن شواهد موسوعية الجاحظ عرضه لنماذج من مختلف الأمم فيمـــا يتناوله من القضايا ، سواء اتصلت القضية بعالم الأدب ، أم عـــالجت أحـــوالا إنسانية عامة .

ففى بداية (البيان والتبيين) ، وخلال الصفحات الأولى منه ، نـــرى الجاحظ فى عرضه لأهمية البيان وخطر العىّ ، ينقل عن " بزرجمهر بن البختكـان الفارسىَ " أنه سئل " : أى شئ أستر للعَىّ ؟ قال : عقلٌ يُجَمله ، قالوا فـــإن لم يكن له عقل ؟ قال : فمالٌ يستره ، قالوا فإن لم يكن له مال ؟ قال : فـــإخوان يعبرون عنه ، قالوا : فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه ؟ قال : فيكـــون عيبـاً صامتا ، قالوا : فإن لم يكن ذا صمت ؟ قال : فموتٌ وَحِىّ خير له من أن يكون فى دار الحياة " [1] .

فبالرغم من أن أمة العرب هى من أشهر الأمم فى قوة العبارة وصفـــاء الأداء البيانى ، والحرص على استكمال آلته – لم يستنكف الجاحظ عن تقـــديم نموذج من الفرس ، يدل على حبهم للفصاحة ، وبغضهم للِعىّ ، وهى محاولة من الجاحظ لنقل القضية من الخصوصية اللغوية لأمة العرب ، إلى أفـــق أوســـع ، تتجاوب فيه العقول ، وتلتقى على الحكمة ، أيا كانت لغتها ، فالعقل ، والمال ، والإخوان ، ومن بعدهما الصمت .. هى المعينات للعاقل على ستر حاله إن كـان عيباً لا يبين ، وإلا فالموت خير علاج لمن لا يصبر على كتمان أمـــره ومـــداراة حاله .

ولاشك أن سيادة الأقوام وتسنم الذُّرا واحتلال موقع التوجيه والقيادة فى المجتمعات البشرية يحتاج إلى مقومات خاصة ، من أهمها القـــدرة البيانيـــة ، وافتقاد هذه القدرة يضع المتصدر للسيادة فى مشكلة لابد أن يبحث عن حل لها ، ومن هنا كان السؤال الموجه إلى الحكيم الفارسى الشهير " بزرجمهر " وكـــانت إجابته عنه تمثل ميراثا عقلياً إنسانياً عاماً ، تكاد تلتقى عليه عامة عقول البشـــر ،

([1]) البيان والتبيين ١ / ٧ . والوَحِىّ – بتشديد الياء – العَجِل المسرع .

وقد أشار الأستاذ " عبد السلام هارون " فى تحقيقه لهذا المقطع إلى أن "بزرجمهر" هو الذى قص تاريخ انتساب كتاب كليلة ودمنة ، وترجمته من الهند ، فلاشك أن لمثله بين الفرس من المكانة ما لكبار نقادنا ومفكرينا فى أدبنا العربى .

وفى معرض حديثه عما يعترى أعضاء النطق من ضروب الآفات ، نواه ينقل عن " سهل بن هارون " قوله : " لو عرف الزنجى فرط حاجته إلى ثناياه فى إقامة الحروف ، وتكميل آلة البيان ، لما نزع ثناياه " [1] .

وينقل عن " أبى الحسن المدائنى " أنه سأل "مباركاً الزنجى الفاشكار" [2] فقال له : لم تنزع الزنج ثناياها ؟ ولم يُحدّد ناس منهم أسنانهم ؟ فقال الزنجى : أما أصحاب التحديد فللقتال والنهش ، ولأنهم يأكلون لحوم الناس ، ومتى حارب ملك ملكاً فأخذه أسيراً أو قتيلاً أكله ، وكذلك إذا قاتل بعضهم بعضاً أكل الغالب منهم المغلوب ، وأما أصحاب القلع فإنهم قالوا : نظرنا إلى مقادم أفواه الغنم فكرهنا أن تشبه مقادم أفواهنا مقادم أفواه الغنم " .

ونحن نرى " الجاحظ " هنا ينقل لنا عادة غريبة من عادات الزنج ، ذات أثر بالغ فى سلامة النطق وحسن الكلام ، وجمال مظهر الفم ، وهى نزع الثنايا .

فبالرغم من أن الحرص على جمال الصورة وسلامة الأداء اللغوى قاسم مشترك بين جميع الأمم ، نرى الزنج ينزعون ثناياهم حتى لا تشبه أفواههم أفواه الغنم ، فخسروا عضواً هاماً من أعضاء النطق ، لأجل هذه العلة المدّعاة ، ولو تفكروا قليلاً لوجدوا كثيراً من الأعضاء ربما تشابهت بين الإنسان وبعض الحيوان ، فهل يكون ذلك داعيا إلى التخلص منها ؟

---

(1) السابق ١ / ٥٨ .

(2) فارسية معربة . أصلها " بشكارى " بمعنى الفلاحة والزراعة .

وهذه العادة الزنجية تدل على نمط من التفكير الجزئى المبتُور .

والجانب الآخر من كلام الزنجى ، هو الذى يعلل فيع لما يفعله بعـــض الزنوج من تحديد أسنانهم ، وتعليله – إن صدق – يدل على وحشية عند بعض الزنوج ، كما يدل على تخلفهم فكريا ومجتمعيا ، فتحديد الأســنان وتجــهيزها لاستعمالها فى أكل لحوم المغلوب فى المعركة ، أسيراً أو قتيلا ، صورة من صــور الوحشية البدائية والانحدار الإنسانى .

ثم ينقل الجاحظ عن " صاحب المنطق " أن الحيوان والطائر الذى يمكنــه النطق " كلما كان لسان الواحد فيهما أعرض كان أفصح وأبين وأحكــى لمــا يلقَّن ولما يسمع كنحو الببغاء والغُدا..... وما أشبه ذلك وكالذى يتهيأ من أفواه السنانير إذا تجاوبت ، من الحروف المقطعة المشاركة لمخارج حروف الناس" [1] .

وقد فسَّر محقق البيان والتبيين " صاحب المنطق " بأنه "أرسطوطاليس" ، وإذا صح هذا التفسير ، فإن الجاحظ يكون قد أفاد فى هذه القضية من الفكــر اليونانى القديم ، وهو شاهد على موسوعية ثقافة الجــاحظ ، وتنــوع روافــد الاستدلال عنده .

كما نراه ينقل عن الهند فى ذات القضية فيقول : " وتقول الهند : لــولا أن الفيل مقلوب اللسان لكان أنطق من كل طائر ، يتهيأ فى لسانه كثــير مــن الحروف المقطعة المعروفة " [2] .

ولم تقتصر موسوعية الجاحظ على أبواب الجد من الكلام ، بل تعدته إلى الهزل وأحاديث المجانين وطرائف الموسوسين ، فيذكر منــهم " أريســيموس " اليونانى [1] إلى جوار أبى حية النميرى وجعيفران الشاعر وأشباههما من الحمقى .

---

(1) البيان والتبيين ١ / ٦٢ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(2) البيان والتبيين ١ / ٦٤ .

وفى معالجته لقضية " العصا " نراه يضرب الأمثلة ويسوق الشواهد على أهميتها ، فلا يقتصر فى احتجاجه على ما يسوقه من كلام العرب - إذ المجال مجال دفاع عن اتخاذ العرب للعصا - بل يتجاوز ذلك إلى أمم أخرى كالزنج ، ويتجاوز حياة البدوى إلى طوائف من البشر ، ذوى سمت خاص كالرهبان .

يقول أبو عثمان الجاحظ " وناس كثير لا يستعملون فى القتال إلا العصىَ منهم الزنج : قنبلة ولنجويه ، والنمل ، والكلاب ، وتكفر ، وتنبو [٢] ، على ذلك يعتمدون فى حروبهم ، ومنهم النبط ، ولهم بها ثقافة وشدة وغلبة ، وأثقف ما تكون الأكراد إذا قاتلت بالعصىَ " [٣] .

واتساع نطاق المعرفة ، وتنوع روافدها ، هيأ للجاحظ أن يغمز المعاندين والقادحين فى اتخاذ العصا ، فيرميهم بضيق الأفق ، وقصر الباع ، وجُزنية النظرة ، فيقول : " ولو علم القوم أخلاق كل ملة ، وزىَ أهل كل لغة ، وعللهم فى ذلك ، واحتجاجهم له ؛ لقل شغبهم ، وكفونا مؤونتهم .. هذه الرهبان تتخذ العصىَ ، من غير سقم ولا نقصان فى جارحة ، ولابد للجاثليق من قناع ، ومن مظلة ، وبُرْطُلَة ، ومن عُكّاز ، ومن عصاً ، من غير الداعى إلى ذلك كبراً ولا عجزاً فى الخِلقة " [٤] .

---

(١) السابق ١ / ٣٨٦ ، ٢ / ٢٢٦ .

(٢) قنبلة ولنجويه وتكفو وتنبو ، والنمل ، والكلاب : أسماء لقبائل الزنج ، كما جاء فى شرح المحقق (هامش ٣ ، جـ ٣ / ٥١) .

(٣) السابق .

(٤) الجاثليق : أجد رؤساء النصارى ، والبَرْطُلَة : نبطية الأصل ، وهى القلنسوة التى تُدار عليها العمامة ، انظر : السابق / ٩٠ .

قضايا الأدب المقارن فى (البيان والتبيين)

تعرض الجاحظ فى " البيان والتبيين " لعدد من القضايا التى تدخل فى نطاق " الأدب المقارن " بمفهومه الواسع ، وهو العناية بآداب متنوعة لأمم متعددة ، فى موضوع تتعرض له هذه الآداب ، ومتابعة حركة التأثر والتأثير بين هذه الآداب ، وأثر العوامل العامة والخاصة فى انتقال الآداب واتساعها ، أو انعزالها وموتها .

وإنما ظهرت هذه القضايا فى معالجات الجاحظ لعاملين هامين :

أولهما : سعة الأفق المعرفى ، وتنوع الروافد العلمية للجاحظ ، وهو ما سبقت الإشارة إليه فى التمهيد للبحث .

ثانيهما : تنوع واتساع عناصر الثقافات الأجنبية فى عصر الجاحظ ، داخل المجتمع الإسلامى ، فى العصر العباسى ، نتيجة الفتوحات ، وانضواء كثير من أهل البلاد المفتوحة تحت لواء الخلافة الإسلامية العباسية ، مما شكل صورة جديدة للثقافة فى المجتمع ، صورة تعددت ألوانها وأشكالها بتعدد العناصر المكونة للمجتمع ، من فرس ، وترك ، وغيرهم .

وهذا الانفتاح المجتمعى ، والتنوع الثقافى ، وضع أدباءنا أمام تحدٍ لابد من مواجهته ، وتساؤل لا مفر من الإجابة عليه ، هو : ما موقفهم مما تحمله هذه الثقافات الوافدة من أفكار ومفاهيم ، أيقف أمامها وقفة المعجب المبهور ، أم موقف المتأمل الدارس ؟

أو وقفة الرافض المكابر الذى يدعى الفضل والتفوق لنفسه ولأمته دون غيرها من الأمم ؟ إن الموقف الأخير ترفضه روح العلم الموضُوعية ، لأن لكل أمة مهما كان شأنها ميزة فضلها بها الخالق سبحانه ، والرعونة والغطرسة وادعاء

التميز بدون دلائل واقعية منطقية ، لا تسلم صاحبها إلا إلى المقت ممن يتعـــالى عليهم ، والانعزال عنهم .

والعزلة لا تسلم صاحبها إلا إلى الموت ، فليس هناك من يمتنـــع عـــن التعامل مع من حوله أخذاً وعطاء إلا الميت ، فالأمة التى تنغلق على نفســـها ، تحكم على نفسها بالموت ، وبخاصة فى وقت تفرض عليها فيه طبيعـــة الحيـــاة الاتصال بل والاحتكاك والامتزاج .

كان الجاحظ على إدراك واعٍ لكل ذلك ، وإن كان تطبيقه لمقتضى هذا الإدراك تطبيقا فطرياً ، تظهر فيه طبيعة الخطوة الرائدة والفكرة الأولى .

لكنه – برغم ذلك – يعد نموذجاً متميزاً بمقياس عصره ، لأننا نجـده فى تلك القرون الأولى ، وقبل أن تعرف أوروبا وجامعاتها ما يسمى اليوم " بالأدب المقارن " ، نراه يعقد المقارنات بين مفهوم البلاغة لدى مختلف الأمـــم ، كمـــا يتناول قضية من أهم وأبرز قضايا " الأدب المقارن " بمفهومه الحديث ، وهى أثر الهجرات فى لغات الآداب المختلفة ، وحركة التأثير والتـــأثر بـــين المـــهاجرين والبلاد التى هاجروا إليها ، كما يعرض لأثر المنشأ فى طريقة النطق لدى عـــدة أمم ، ودواعى استخدام العربى لمفردات لغة أخرى مما يعـــد ســـبيلا لدخـــول مفردات دخيلة أو معربة إلى لغتنا ، ..... إلى غير ذلك من القضايا التى تُعد مـــن محاور الأدب المقارن .

والآن نعرض لهذه القضايا كما أوردها " الجاحظ فى " البيان والتبيـــين " بشيئ من التفصيل .

القضية الأولى

مفهوم البلاغة بين العربية واللغات الأخرى

الدارس للبلاغة العربية ، الذى لم يطلع على آداب أخرى ، ربما ظن أن صناعة الكلام ، والتفنن فيه ، والتقعيد له ، أمر خاص بلغتنا ، ولكننـــا نـــرى الجاحظ يعالج القضية بشكل مقارن ، فيضع أمام الدارس الرؤى المتعددة لمفهوم البلاغة عند مختلف الأمم ، فيقول : " قيل للفارسىّ : ما البلاغة ؟ قال : معرفـة الفصل من الوصل ، وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قـــال : تصحيـــح الأقســـام واختيار الكلام ، وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضـــاب عنـــد البداهة والغزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندى : ما البلاغة ؟ قـــال : وضـــوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغـــة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة " [1] .

ولسنا هنا – بالطبع – بصدد التعرف على مضمون البلاغة فى ذاتـــه ، ولكن الذى يعنينا هنا هو اختلاف هذا المضمون بين أمة وأخرى ، مما يدخـــل بشكل ما تحت البحوث المقارنة .

والتعريفات التى أوردها الجاحظ ، تظهر فى كل منها طريقة التفكـــير ومنهجه عند كل أمة ، تلك الطريقة التى ينطبع فيها جليا أبرز ما تتميز فيه الأمة من خبرات .

ونجد ذلك واضحاً – على سبيل المثال – فى تعريف اليونانى للبلاغـــة ، حين قال عنها : " تصحيح الأقسام واختيار الكلام " .

---

(1) " البيان والتبيين " ١ / ٨٨ .

فاليونان هم أمة المنطق والفلسفة، والتقسيم العقلى للأشياء والأحداث ، ولذا ظهر فى رؤيتهم للبلاغة المضمون العقلى ، المتصـــل بعمـــل القريحـــة ، فى التقسيم والاختيار .

والهند أمة الحكمة والحيلة ، وحسن التوصل بالأسباب ، ولذا نجـــد فى تعريفهم للبلاغة " وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة " وهـــى قدرات يتميز بها صاحب الحيل الواسعة ، المتمكن من معطيات لغته ، الأريب فى التعامل مع الظروف المحيطة به .

ولعل ما وصلنا من حكمة الهند فى صورة مترجمة ككتـــاب " كليلـــة ودمنة " يشير بوضوح إلى جانب الحكمة والحيلة فى سياسة الأمور ، وحســـن التوصل والتخلص معاً ، والقدرة على الاحتجاج والبرهنة ، وهى قدرات تعـود إلى العقل .

أما الفرس فهم أمة خطابة ولهم فى ذلك شأن ، ولذا جاء تعريفهم أقرب إلى محيط الفن ، فمعرفة الفصل من الوصل -وإن ارتبطت بالجـــانب العقلـــى- تتصل بفن الكلام وأدوات الفصل والوصل المستخدمة، ومواضع استعمال كل منها .

ولاشك أن حرص الجاحظ على معرفة مدلول البلاغة لـــدى مختلـــف الأمم وعلى نقل هذه المعرفة فى كتابه فتح باباً مهماً من أبواب الاتصـــال بـــين العرب وهذه الأمم ، وهو الأمر الضرورى لأمة حقيق بها أن تستوعب هـــذه الأمم بموروثها المعرفى ، وأن تصبغه بصبغتها ، وتصوغه فى بوتقتها .

ولا يقتصر حديث الجاحظ عن مفهوم البلاغة على نقـــل التعريفـــات السابقة ، بل يبذل جهداً أكبر ،ويقدم للبحث المقارنى خدمة جليلة ويداً ناصعة ، حين دعاه همه للمعرفة ، وحرّضَتْه حاسة البحاثة فيه ، على مخالطة جميع مـــن يلقاهم من الأمم الأخرى ،ونقل جميع ما يأخذ عنهم من معرفة إنسانية فى كتبه .

وهنا ملاحظة تجدر الإشارة إليها ، هى أن النهم إلى المعرفة الإنسانية والتطلع إلى كل ما أبدعته القرائح لدى الأمم الأخرى هو اتجاه أذكاه لدى الجاحظ فكرة الاعتزالى المعتمد على إعمال العقل واعتباره مصدر المعرفة ، والحث على التعرف بما لدى الأمم الأخرى من فلسفات وأفكار ، وإطلاق الحرية فى هذا الاتجاه إلى أبعد حد ممكن .

وفى هذا الإطار نجد بعض روايات الجاحظ منقوله عن " معمَّر أبى الأشعث [1] " صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة ، ومنها هذه الرواية التى يقول فيها معمر : قلت لبهلة الهندىَ – أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند ، مثل " حنكة " و " بازيكر " و " قِلْبرَقل " وسندباذ وفلان وفلان : – ما البلاغة عند الهند ؟ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها " [2] .

وواضح من بداية الرواية أن العصر كان عصر انفتاح معرفى بكل ما تعنيه الكلمة ، وأن الدولة العباسية فى ذلك الوقت كانت حاضرة العلوم والمعارف ، ومحط الأنظار ، وبُغية القُصّاد من ذوى العقول المتميزة فى كل أمة ، بل كانت تستدعى تلك العقول ، وتحسن وفادتها والإنفاق عليها – كما تفعل كبرى الدول اليوم – لتفيد من خبرات هذه العقول ، وهذا ما ينص عليه الجاحظ ويؤكده التاريخ ، فإن يحيى بن خالد البرمكى قد استجلب أطباء الهند ، ورغبهم فى الهجرة من بلادهم إلى الدولة الإسلامية ، ولاشك أنهم رأوا فى شكل الدولة ونظمها ورفاهية العيش فيها مرغبات فى الهجرة من بلادهم إليها .

---

(1) هو معمَّر بن عباد السّلمى المعتزلى ، ومن تلاميذه أبو الحسن المدائنى ، وأبو ثمر ، وأبو بكر الصم ، توفى سنة ٢١٥ هـ ، حسب ما ذكره محقق البيان والتبيين جـ ١ / هامش ص ٩١ .

(2) البيان والتبيين ١ / ٩٢ .

ومن المعلوم أن هجرة العقول من المؤثرات الهامة فى الدراسات المقارنة ، لأن انتقالها يعنى انتقال نموذج من التفكير والرؤية والتصور من بيئة إلى بيئـــة ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، ولاشك أن هذا النموذج سيتأثر بالمجتمع الجديد ، ويؤثر فيه ، بقدر ما لديه من خبرة وقدرة على العطاء والتأثير .

وإجابة الطبيب الهندى " بهلة " على سؤال أبى الأشعث ، تشعر بالأمانة العلمية ، فى النقل ، والحرص على تبادل العطاء المعرفى من أصوله الموثقـة ، ورد الأمر إلى المتخصصين وبهذه الروح العلمية تنمو المعرفة الإنسانية .

والصحيفة التى ترجمت لأبى الأشعث منها ما يتعلق بالجـانب النفســى للمتحدث ، كرباطة الجأش وسكون الجوارح ، وما يتصـــل بقدرتـــه اللغويـــة واتساع معجمه اللفظى كتخير اللفظ ، وتنويـــع الكـــلام حســـب المســـتوى الاجتماعى للسامع ، ومنها ما يتصل بمراعاة درجة ثقافة المتلقى ، من حيث دقة المعنى وعمق المضمون ، " أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجـــوارح .. لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ... ولا يدقق المعانى كل التدقيق ... ولا يفعـــل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفا عليما ..... "[1] .

وفى الصحيفة –أيضا – تعرض لمطابقة اللفظ للمعنى ، ولقدرة المتحدث على تحقيق التوازن فى خطابه ، والاتساق المطرد فى ترتيبه لعنـــاصره ، بحيـــث يعضد آخره أوله ، ويبنى التالى منه على الأساس الذى هيأه المطلـــع ، تقـــول الصحيفة " ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ..... ويكـــون – أى الخطيب – مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصـــادره فى وزن تصفحه لموارده "[2] . وتظهر العقلية الهندية الحكيمة فى ثنايا الصحيفة ،

---

(1) السابق .

(2) السابق .

فالحرص على توفر المقومات النفسية لثبات الخطيب ، وتنويع الأسلوب للمقـام والسامع ، وانتقاء اللفظ الدقيق المطابق للمعنى ، وتساوق بدء الخطاب وختامه ، – كل ذلك من معالم الحكمة ودلائل العقلية الناضجة .

ويضاف إلى ذلك التوازن الضرورى لدى الخطيب ما بين اهتمامه لنفسـه بالتقصير ، وحسن الظن بها فى كمال الأداء ، " ويكون – أى المتحـدث – فى التهمة لنفسه معتدلاً ، وفى حسن الظن بها مقتصداً ، فإنه إن تجاوز مقدار الحـق فى التهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين ، وإن تجاوز الحـق فى مقـدار حسن الظن بها آمنها فأودعها تهاون الآمنين " [1] .

والصحيفة – بعد ذلك – توضح أثر انعدام التوازن النفسـىّ لـدى المتحدث ، ظلماً للنفس أو تهاونا معها ، إذ يؤدى كلا الأمريـن إلى مشـغلة للنفس وهى مدخل للوهن ، وهو مسبب للجهل ، وقد رتبت الصحيفة هـذه النتائج النفسية الثلاث ترتيبا منطقيا " ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكـل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل " [2] .

ويلاحظ على الصحيفة تغليب الجانب النفسى والمضمون على الجـانب المتعلق بمظهر المتحدث أو ألفاظه ، فذكر اللفظ لم يتجاوز موضعين هما " متخـير اللفظ ..... ويكون لفظة مونقاً " وأما تصفية الألفـاظ وتنقيحـها فى مخاطبـة الحكماء ، وحذف الفضول عند ذلك ، فذلك راجع إلى إعمال العقل والحكمة ، فى الحذف والذكر ، لا إلى قيمة لفظية خارجية كجرس الأصـوات أو نـوع المقاطع ، أو تناسب الفواصل وما شابه ذلك ، فاعتداد الهند بالمعنى والمضمـون

---

(1) " البيان والتبيين " ١ / ٩٣ .

(2) السابق .

مقدم على اعتدادهم باللفظ والشكل ، واللفظ عندهم تابع للمعنى ، وصـــورة يجب أن تأتى مطابقة له " ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا " [1] .

وقد ذكر " أبو هلال العسكرى " فى " الصناعتين " هذه الصحيفـــة ، وتعرض لها بالشرح ، لكن شرحه لها يحتاج بعضه إلى إعادة نظر ، فهو يتنـــاول فاتحة الصحيفة فيقول " فأول البلاغة اجتماع آلة البلاغة " ثم يعلق عليها بقولـه " وأول آلات البلاغة جودة القريحة وطلاقة اللسان ، وذلك من فعل الله تعـالى لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه [2] " ، ونحن مع تسليمنا بأن جودة القريحـــة هبة من الله – عز وجل – وكذلك طلاقة اللسان ، فإننا لا يمكننا التسليم بـــأن العبد غير قادر على اكتساب هاتين الصفتين ، فإن طلاقة اللسان لها الأســـباب النفسية التى وضحها الحكيم الهندى وهو يفسر مفهوم " آلة البلاغة " بقولـــه " وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح ، قليل اللحظ " ، ومـع ذلك فقد أغفل صاحب الصناعتين الارتباط بين هذا العامل النفسى وما قبلـــه ، فقد جعله الحكيم الهندى شرحاً لمعنى (آلة البلاغة) ، بينما تناوله " أبو هـــلال العسكرى " مستقلاً عما قبله وكأنه كلام جديد ، مع أن الربط بينهما هنا جـاء بقوله " وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش " .

ولطلاقة اللسان أيضا أسبابها الخارجية ، من حفـــظ نصـــوص اللغـــة والتمرس بها والتدرب على النطق الصحيح ، وتعود مقامات المواجهة .

أما جودة القريحة ففيها جانب العطاء الربانى ، يُذكيه ويظهره الدربـــة والخبرة والمران ، والأخذ بأسباب تنمية القدرات العقلية والذهنية .

---

(1) السابق .

(2) الصناعتين ، لأبى الهلال العسكرى / ٣٠ تحقيق د . مفيد قميحة دار الكتب العلمية ، بيروت .

وقد استعرض " أبو هلال العسكرى " عامة الصحيفة الهندية معلقاً عليها بطريقة الشح للمتن، فهو ربما أورد جزءاً من العبارة ، وقطعه عن باقيها ، ثم أخذ فى شرحه ، بشكل ربما أوهم بانقطاع الكلام عما سبقه ، كقوله مثلاً " ولا يُنقح الألفاظ كل التنقيح " [1] ، يذكرها صاحب الصناعتين ثم يأخذ فى شرح معنى تنقيح الألفاظ بأنها " أن يبنى منها بناء لا يكثر فى الاستعمال .. ويدخل فى تنقيح اللفظ استعمال وحشّيه ، وترك سَلسِهِ وسهله " [2] ، ثم يعود فيشرح قول الهندى " ويصفّيها كل التصفية " بقوله " وتصفيته تعريته من الوحشى " [3] ، فشرح الكلام بهذه الصورة المقطعة ، ربما أفهم القارئ تناقضاً فى كلام الهندى ، لأن السياق جاء هكذا " ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ويصفّيها كل التصفية ، ويهذبها كل التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما " [4] ، فمفهوم العبارة متصلة يعنى نهى البليغ عن تنقيح الألفاظ وتصفيتها وتهذيبها حتى يكون المخاطبين حكماء فلاسفة ، فحينئذ ينقح ويصفّى ويهذب ألفاظه ، لكن شرح " أبى هلال العسكرى " جعل استعمال الوحشىّ من الألفاظ مطلوباً فى أول العبارة مرفوضاً فى آخرها ، إذ وصف التنقيح – كما جاء فى عبارته السابقة – باستعمال الوحشىّ ، ووصف التصفية بترك الوحشى ، مع أنهما جاءا فى سياق واحد .

وفى نهاية استعراض " أبى هلال العسكرى " للصحيفة ، نجده يتوقف عند قول الهندى " ويكون تصفحه لمصادر كلامه بقدر تصفحه لموارده .....

---

(1) الصناعتين / ٤٠ ، ٤١ .

(2) الصناعتين / ٤٠ ، ٤١ .

(3) الصناعتين / ٤٠ ، ٤١ .

(4) الصناعتين / ٤٠ ، ٤١ .

" فيعلق عليه بقوله " وباقى كلامه يتضمن صفة المتكلم لا صفة الكـــلام لـــولا قوله : ويكون تصفحه لموارده بقدر تصفحه لمصـــــادره [1] " ، ويـــترك بقيـــة الصحيفة ، دونما تعليق ، لأن هذه البقية تتعلق بالمتكلم لا الكلام .

والجزء الذى أهمل صاحب الصناعتين شرحه ، يتعلق بالجانب النفســىّ لدى المتحدث وهو جزء له أهميته وضرورته فى تحقق وصف البلاغة للمتحدث ، ولا يقلل من أهميته كونه متعلقاً بالمتكلم ، فما المتكلم إلا المنشئ الذى يصـــدر عنه الأسلوب البليغ ، وليست مراعاة توازنه النفسىّ بأقل خطورة من مراعـــاة تخيره للفظ ومراعاته للسامعين .

وقد نقل ابن قتيبة فى كتابه " عيون الأخبار " نص هذه الصحيفة الهندية فى البلاغة ، مقدما إياها بقوله " وفى كتاب الهند " [2] ، ثم ساق الصحيفة كاملة دون أدنى تعليق عليها .

---

(1) السابق / ٤٨ .

(2) عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينورى جـ ٢ / ١٨٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،طـ ١ ١٩٨٦ .

القضية الثانية

أثر الهجرات والاختلاط بين الشعوب فى اللغة والأدب

الهجرات من العوامل الهامة فى تحقيق التقارب بين الآداب واللغات المختلفة ، فمن خلالها يحدث الامتزاج ، الذى يسبب التأثر والتأثير بين أدب ولغة المهاجرين وآداب أهل البلاد الأصليين .

ودراسة الهجرات وتأثيرها فى آداب الأمم من الأبواب الهامة فى الأدب المقارن ، فهى إحدى عوامل الاتصال ، التى تشكل عالمية الأدب .

وقد تعرض " الجاحظ " لأثر الهجرات فى ألفاظ اللغة ، سواء كانت الهجرات داخلية ، أى بين بلاد العرب أو خارجية أى من بلاد العجم إلى بلاد العرب أو العكس ، ولاشك أن الذى يدخل فى موضوعنا هنا هو النوع الثانى ، إذ هو الذى يُعنى به الدرس المقارنَ .

وليس مجرد قرب بلد عربى من بلاد العجم عاملاً مؤدياً إلى التأثر اللغوى بين البلدين ، لكن الشأن فى وجود اتصال واحتكاك بين البلدين ، ونزوح من إحداهما إلى الأخرى ، ليظهر أثر هذا الاتصال فى اللغة ، يقول " الجاحظ " : " ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس فى قديم الدهر عَلِقُوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ : الخِرْبِزْ ، ويسُّون السَّمِيط : الرَّزْدَق [1] ، ويسمون المَصُوص : المزَوُر [2] ، ويسمون الشَّطَرنج : الأَشْتَرنج ، فى غير ذلك من الأسماء ، وكذلك أهل الكوفة ، فإنهم يسمون المسحاة : " بَالْ " ، و " بال " بالفارسية " [3] .

---

(1) السميط : كشريف وهينة التصغير أيضا : الآجر القائم بعضه فوق بعض ، والرزدق : فارسىّ معرب ، واصله بالفارسية (رسته) ومعناه السطر والصف من النخل وغيره / البيان والتبيين ١ / ١٩ .

(2) المصوص : لحم يتقع فى الخل ويطبخ . السابق .

(3) السابق .

ثم يشير الجاحظ إلى أن انتقال ألفاظ فارسية إلى ألسنة عربية ، إنما كان لحدوث الاحتكاك ، فليس مجرد قرب البلد العربى من بلاد فارس محدثاً لهذا الأثر ، وإلا لكانت " البصرة " أولى بهذا التأثر ، لأنها أقرب البلاد العربية إلى فارس ، لكن هذا الأثر أظهر فى الكوفة منه فى البصرة ، مع أن الكوفة أقرب إلى بلاد النبط من بلاد فارس ، ووجود ألفاظ فارسية لدى أهل المدينة خير شاهد لذلك ، مع أنها من بقايا من نزح إليهم من الفرس فى قديم الزمان كما يقول الجاحظ .

ويزيد الجاحظ الأمر وضوحاً بعقد مقارنة بين لغة أهل كل من "البصرة" ، ليثبت شدة تأثر الكوفة باللغة الفارسية مع بُعدها مكانيا عن فارس ، وقرب البصرة من بلاد فارس ، فيقول : " ويُسمى أهل الكوفة الحَوْك : الباذَروج [1] ، والباذَرُوج بالفارسية ، والحَوْك كلمة عربية ، وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها : مربَّعة ، ويسميها أهل الكوفة : الجهارسوك ، والجهارسوك بالفارسية ، ويسمون السوق والسُّويقة : وازار والوازارا بالفارسية ، ويسمون القِثّاء : خياراً ، والخيار بالفارسية ، ويسمون المجدوم : وَبذِى ، بالفارسية " [2] .

وربما ينشأ غير العربى فى بلاد العرب ، نتيجة هجرة أبوية وإقامتهم فيها ، ويتمخض من هذه الإقامة الدائمة جيل جديد ، ربما سماهم بعض المؤرخين " مُولَدين " وبالرغم من النشأة فى بلد عربى ، فإن أثر الأبوين ، والأصل الأعجمى يظل ظاهراً فى طريقة النطق ، وطبيعة الحروف ، وإن كان الناشئ المولَّد قادراً على تخير الألفاظ الرائقة ، والمعانى الكريمة .

---

(1) البَاذَرُوج : بفتح الدال وضم الراء ، ذكر المحقق للبيان والتبيين أنه اسم لريحانه معروفة ، ١ / ٢٠ .

(2) البيان والتبيين ، ١ / ٢٠ .

يعرض الجاحظ هذه القضية – قضية نشأة الأعجميّ نسباً وأصلاً فى بلد عربى ، وما ينتج عن هذه النشأة فى لسانه من لكنه بالرغم من النطق العربى فيقول : " وقد يتكلم المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه مُتخير فاخراً ، ومعناه شريفا كريما ، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطىّ ، وكذلك إذا تكلم الخراسانى على هذه الصفة ، فإنك تعلم مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه ، أنه خراسانى ، وكذلك إن كان من كتاب الأهواز " [1] .

فإذا جُلب الأعجمى كبيرا إلى بلاد العرب ، فإن انتقاله لا يؤثر فيه إلا نادراً ، ذلك لأنه قد تشكلت الذاكرة اللغوية عنده فى بلاده الأعجمية ، ومن العسير عليه تغييرها ، فلا هو يستطيع إقامة الحروف ، ولا إخراجها من مخارجها ، وربما ظهر ضعف عبارته ، فى أسلوبه ، فتغير الموطن فى الكبر لا يكاد يؤثر على لغة الأعجمى وطريقة نطقه ، يشير الجاحظ إلى هذه القضية فيقول " ألا ترى أن السندى إذ جُلب كبيرا فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ، ولو أقام فى عُليا تميم ، وفى سُفلى قيس ، وبين عجز هوازن ، خمسين عاماً " [2] ، ويختار الجاحظ معادن الفصاحة العربية ، ليضرب بها المثل هنا ، فإن تغيير عادة النطق ، عسير فى الكبر ، مهما دُرب الناطق ، وأقام فى مناطق العربية الصافية ، مدداً طويلة من الزمن تصل إلى خمسين عاماً .

ويقدم الجاحظ شاهداً آخر لهذه القضية من عالم تجارة الإماء ، فيقول " والنخاس يمتحن لسان الجارية ، إذا ظن أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولدة بأن تقول : ناعمة ، وتقول : شمس ، ثلاث مرات متواليات " .

---

(1) السابق / ٦٩ .

(2) البيان والتبيين ، ١ / ٧٠ .

وهو دليل لا يمكن رده ، إذا اختيار الكلمات هنا ، وتحديد عدد مرات نطقها ، يدل على أن النخاس يعقد امتحانا للجارية فى نطق الحروف ، يظهر منه منشؤها ، ولن تستطيع أن تخفى الحقيقة مهما تكلفت ، لأن أعضاء النطق إن احتملت تغيير طبيعتها مرة ، فسيصعب عليها تكرار ذلك ثلاث مرات .

وقد تتأثر لغة العربى نتيجة اختلاطه بالعجم ، وقصة اللحن الذى دخل على العربية نتيجة امتزاج العرب بغيرهم أشهر من أن تذكر ، لكن الأمر قد يتعدى التأثر المعروف باللحن ، إلى تعمد إدخال كلمات أعجمية بين الجمل العربية ، ربما على وجه التملح ، وتلك خطوة من خطوات التقارب اللغوى ، وهى إدخال المفردات الأجنبية ، إلى عالم اللغة العربية ، فى البداية يكون تملحاً ، وقد يصبح بعد ذلك عادة ، يذكر الجاحظ ذلك فيقول " وقد يتملح الأعرابى بأن يدخل فى شعره شيئا من كلام الفارسية ، كقول العمانى للرشيد فى قصيدته التى مدحه فيها :

من يلْقه من بطل مُسْرِنْدْ ... فى زغفه محكمة بالسَّرد [1]

تجول بين رأسه والكرد

يعنى (العنق) ، وفيها يقول أيضا : –

لما هوى بين غياض الأسد ... وصار فى كف الهزبر الورد

آلى يذوق الدهر آب سرد [2]

وكقول الآخر :

ود لهنّى وقع الأسنة والقنا ... وكافر كوبات لها عُجَرٌ قُفِدُ [3]

---

(1) المُسْرِند : الذى يغلب ويعلو ، والزغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، والسرد : سمر الورد .

(2) آب سرد : ماء بارد . انظر : السابق ١ / ١٤٢ .

(3) كافركوبات : المقرعة ، والعُجَر : جمع العُجْرة : العقدة فى الخشبة ونحوها ، والقُفْد : جمع الأقفد وهو فى أصله الغليظ العنق ، انظر هامش البيان والتبيين ١ / ١٤٢ .

بايدى رجال ما كلامى كلامهم يسومُوننى مرداً وما أنا والمَرْد [1]

ولعلنا نلاحظ فى عصرنا هذا دخول المفـــردات الأجنبيـــة ، إنجليزيـــة وفرنسية ، إلى لغتنا العربية ، وبخاصة لدى ذوى التخصص العلمـــى ، الـــذى يفرض على أصحابه الدراسة بلغة أجنبية كالطب والصيدلة ، وربما سافروا أيضا للدراسة وغيرها إلى تلك البلاد ، فإذا عادوا ظهرت معالم اللغة الأجنبية علـــى لسانهم ، بل تميز نطقهم العربى للحروف فى ذاته عن نطق العربى الذى لم يفـــارق بلاده ، فتجد ذلك المعايش للغة أخرى ، ربما صعب عليه نطق بعض أصـــوات القرآن الكريم ، لتميزها بالتركيز والضغط على أعضاء النطق ، بينمـــا تقـــوم أصوات اللغتين الإنجليزية والفرنسية – فى عمومها – على الخفة فى النطـــق ، وعدم التركيز على الحرف ، وبخاصة فى لغة المعاصرين منهم .

ونلمح إدخال ألفاظ من اللغات الأخرى إلى العربية على وجه التملـــح أو الوجاهة ، أو إظهار القدرة ، أو التميز الاجتماعى والتخصص ، أو لغلبـــة العادة وكثرة تردد المصطلح أثناء العمل بالمهنة ، نلمح هذه الظاهرة القديمـــة ، التى رواها الجاحظ من العصر العباسى ، نلمحها فى عصرنا الحديـــث ، بهـــذه الدوافع السابقة كلها ، لا بدافع التملح وحده ، نظراً لتغير ظـــروف المجتمـــع العربى ومنزلته فى المجتمع الدولى اليوم ، عما كان عليه فى العصر العباسى .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، نلحظها فى معاملاتنا اليوم ، فبدلاً مـــن أن يقول أحدهم جاءت بالحظ ، أو قَدَراً ، نراه يقول : Byluck ، وبدلاً مـــن أن يقول : سهل أو يسير جداً ، نراه يقول : VERYEASY ، وبـــدلاً مـــن أن يقول : مستحيل ، يقول : Imposiple وكذلك التحية الصباحية والمسائية ... إلخ .

---

(1) يسومنى : يكلفونى ما لا أطيق وهو المواجهة الشجاعة ، والمرد : بفتح الميم فى الفارســية : الرجـــل ، ومن معانيها عندهم أيضا الشجاع أو البطل ، السابق .

وربما لا يقتصر التأثر هنا على اللغة الأجنبية ، بل يتعداه – وهو موطن الخطر – إلى العادات والتقاليد والرؤى والأفكار والتصورات ، مما يشكل خطراً على شخصية الأمة ، أمام هذا الزحف الذى إن بدا هين الأثر بطيئا ، فإنه مع الزمن ، يصير سمتاً عاماً ، يصعب تغييره .

ويكون هذا الزحف أشد خطورة حين يدخل من باب الإبداعات الأدبية ، ذلك لأن الأمر هنا ليس مجرد نقل للغة ما ، أو إعجاب بها ، بل إنه نقل لمنظومة كاملة من القيم داخل إطار من اللغة الأجنبية ، وربما نجد هذا لدى كثير من قارئى الأدب الأجنبى ، نظرا للعقلية الانهزامية التى تسيطر على كثير منهم .

ولسنا نعنى بذلك رفض آداب الغير ، أو إقامة سور يحول دون الإطلاع عليها ، فليست نتيجة ذلك سوى العزلة ، والعزلة موت ، والأدب المقارن لا يقوم على الأدب المغلق المنعزل ، بل عمادة فتح قنوات الاتصال بين الآداب .

ولكن التعرف على آداب الآخرين شيئ ، والانغماس فيها إلى حد الذوبان وتغيير الهوية والرؤى والأفكار شيئ آخر .

وربما اعتبر الجاحظ قديما مخالطة غير العرب مفسده للغة ، وذلك فى قوله : "ولولا طول مخالطة السامع للعجم ، وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه"[1] .

ولعل هذا فيما يختص بنطق الأعاجم للعربية ، لا للغتهم هم ، لأن لغتهم لا تسمى فاسد لمجرد عجمتها ، فلكل لغة أصولها التى تقوم عليها ، ويبين بها أصحابها ، واعتماد هذه الفكرة أصل من أصول الدرس المقارن .

---

(1) البيان والتبيين ١ / ١٦٢ .

ولاشك أن نطق غير العرب للعربية يشوبه كثير من اللحن ، وقد ذكر الجاحظ أمثله كثيرة لا مجال لذكرها هنا ، وموافقة اللحانين ، وكثرة مخالطتهم ستؤثر على لغة الفصحاء لا محالة ، فاللغة من الظواهر المجتمعية التى تتأثر بالمحيط الاجتماعى وينعكس فيها طبيعة ذلك المحيط وعناصر تكوينه البشرية .

ولذا لم يكن يعتد اللغويون بكلام أعرابى إذا فهم الكلام الملحون ، يقول الجاحظ " ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تفسد اللغة وتنقص البيان ، لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال اجتمعت لها فى تلك الجزيرة ، ولفقد الخطاء من جميع الأمم " [1] .

---

(1) السابق / ١٦٣ .

القضية الثالثة
مقارنة بين العرب وغيرهم
فى الخطابة والأوزان والبديع

عرض الجاحظ فى خلال حديثه عن الشعرية لمقارنة بين الأمم المختلفة وأمة العرب فى جانب العطاء العقلى ، والأداء البيانى بصوره المتنوعة .

ونظرة الجاحظ إلى الأمم ذات الشأن فى ذلك الوقت تتضح من قوله : " وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع ، العرب وفارس والهند والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج " [(١)] .

ويعيد الجاحظ هذا الحكم مؤكدا إياه فى موطن آخر فيقول : " وقد ذكرنا أن الأمم التى فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع ، وهى العرب والهند وفارس والروم " [(٢)] .

واعترض الجاحظ على إضافة الأحباش إلى الأمم المتحضرة فى قول حكيم بن عياش الكلبى : —

ألم يك ملك أرض الله طرا ... لأربعة له متميزينا
لحمير و النجاش وابن كسرى ... وقيصر غير قول الممترينا

فقال الجاحظ : " فما أدرى بأى سبب وضع الحبشة فى هذا المكان " [(٣)] ومعلوم أنه ترك الهند فلم يشر إليهم .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الجاحظ لا يرى فضلا لأمة فى حكم ولا آداب غير هذه الأمم ، وربما كان هذا الحكم صحيحا فى زمنه ، لكننا الآن لا نستطيع

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٧ .

(٢) السابق / ٣٨٤ .

(٣) السابق ١ / ٣٨٤ .

أن نقصر العلوم والآداب على أمة بعينها ، نظرا لتوجـــه العـــالم إلى التقـــارب والتواصل ، وسرعة انتقال المعرفة بين الأمم ، وبخاصة فى عصر شبكة المعلومات العالمية ، ونحن فى حاجة الآن إلى نظرة واسعة ، تتجاوز الإقليمية إلى العالميـــة ، وتنحو نحو إقرار الفضل فى العطاء الإنسانى الأدبي والمعرفى لكل أمة دون بخـــس أو إسراف .

وقد جاء حديث أبى عثمان الجاحظ عن المفاضلة بين فن الشعر عنـــد العرب وعند غيرهم ، وما يتصل به من أوزان ، مطويا مختصرا فى خلال عرضـه للنقاط التى سيرد بها على الشعوبية فى دعواها وطعنها على العـــرب فى اتخـــاذ العصا ، وقد وعد فى خلال هذا العرض باستيفاء الحديث عن ذلك فى الجـــزء الثانى ، لكننى لم أجد فى الجزء الثانى ولا ما بعده ما وعد به من حديث مقـــارنى عن الشعر العربى والشعر الأعجمى ، وربما غلبه – حين تحدث عن الشـعوبية فى بداية الجزء الثالث – الانتصار للعرب فى قضية العصا ، واتخاذ المخصرة ومـــا أشبه ذلك ، وسار على نهجه الاستطرادى المعروف دون عودة إلى شرح ما كان عرضه مختصرا قبل ذلك يقول الجاحظ فى نهايات الجزء الأول من كتابه : " وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب فى خطبها المخصرة والقناة والقضيـــب ..... بكلام مستكره وسنذكره فى الجزء الثانى ، إن شاء الله " [1] .

ثم يعرض ما سيذكره فى رده على الشعوبية فيقول " ولابد من ذكـــر المنابر ولم اتخذت ..... والدليل على أن العرب أنطق ، وأن لغتنا أوســـع ، وأن لفظها أدل ، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والأمثال التى ضربت فيها أجـود وأسير ، والدليل على أن البديهة مقصور عليها ، وأن الارتجـــال والاقتضـــاب

---

(1) السابق ١ / ٣٨٥ .

خاص فيها ، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذى تسميه الروم والفـــرس شعرا ، وكيف صار النسيب فى أشعارهم وفى كلامهم الذى أدخلوه فى غنائـــهم وفى ألحانهم ، وإنما يقال على ألسنة نسائهم ، وهـــــذا لا يصـــاب فى العـــرب إلا القليل اليسير ، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشـــعار الموزونة ، فتضع موزونا على موزون ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبســط ، حتى تدخل فى وزن اللحن فتضع موزونا على غير موزون" [1] .

وواضح أن الجاحظ فى هذه اللمحة العارضة يقارن بين الشعر العـــربى وغيره من حيث الموسيقا ، فهو يرى أن الشعر العربى يصاغ على نموذج مـــن اللحن محدد الشكل والزمن ، بمعنى أن القطعة الموسيقية فيه (التفعيلة) محـــددة الزمن فى النطق ، محددة المقاطع ، ومن هنا توفر للشعر العربى إيقاع متناســـق متوازن ، لا مجال فيه للمط أو التقصير ، أو افتعال نغمة بتعمد إطالة مد معـين ، ولكن الشعر الأجنبى ليست فيه هذه الخاصية ، خاصيـــة القـــاعدة الموســـيقية المتناسقة ، المتناغمة ، التى تضمن جمال الإيقاع ووحدته مهما اختلف المـــؤدون للشعر ، ومن هنا تجد غير العرب فى أدائهم الصوتى للشعر يتكلفـــون المـــدود لإعطاء الشعر مسحة موسيقية نلمح ذلك الآن ، فى آدائهم الأشعار إلقاء مجردا ، أو غناءا ملحنا ، فيضطر المغنى إلى إضافة مد طويل فى نهاية كلمة ما ، ليس فيها هذا القدر الطويل من المد ، بل ربما ليس فيها مد أصلا ، ليوافق نهاية جملة سابقة فى نهايتها الموسيقية ، وربما نلمح ذلك أيضا فى تراتيل الكنائس وترانيمها .

وحين نتصفح الجزء الثالث من " البيان والتبيين " ، وهو الذى رد فيـــه الجاحظ على مطاعن الشعوبية ، نراه يعرض قضيتهم من خلال وجهة نظرهـــم

---

(1) السابق .

أولا ، فيقول على لسانهم : " قالوا : والخطابة شيئ فى جميع الأمـــم ، وبكـــل الأجيال إليه أعظم الحاجة ، حتى إن الزنج مع الغثارة [1] ومع فرط الغبـــاوة ، ومع كلال الحد وغلظ الحس وفساد المزاج لتطيل الخطب ، وتفوق فى ذلـــك جميع العجم ، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ ، وألفاظها أخطل وأجهل ، وقـد علمنا أن أخطب الناس الفرس ، وأخطب الفرس أهل فارس ، وأعذبهم كلاما ، وأسهلهم مخرجا ، وأحسنهم دلا ، وأشدهم فيه تحكما أهل مرو ، وأفصحـــهم بالفارسية الدرية وباللغة الفهلوية ، أهل قصبة الأهواز " [2] .

ويجيب الجاحظ عن ذلك بقوله – بعد استعراض طويل لمطاعن الشعوبية فى الحرب ونحوها – :

" وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، فأما الهند فإنمـا لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لا تضاف إلى رجل معـــروف ، ولا إلى عـــالم موصوف ، وإنما هى كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة ومذكورة .

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكـــى اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام ، وتفصيله ومعانيـــه ، وبخصائصه ، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة ، وفى الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد ورأى ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثـــانى علـــم الأول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمعت ثمار تلـــك الفكـــر عنـــد

---

(1) الحمق والجهل .

(2) البيان والتبيين ٣ / ١٣ .

آخرهم ، وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة أو المناقلة ، أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى يقصد إليه ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده ، وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم اسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، ويحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد "[1] .

وواضح أن القضية التى يعرض لها الجاحظ هنا ، هى الرد على الشعوبية فى طعنهم على العرب اتخاذ العصا ونحوها عند الخطب ، وحاجة العرب إلى ذلك ، فموضع المقارنة هو فن الخطابة خاصة ، وما يستلزمه من إشارة بالعصا ونحوها عند العرب ، ويقصر الجاحظ فن الخطابة على العرب والفرس وحدهم ، وإن كُنا لا ندرى كيف كان قادة الهنود مثلاً يوجهون شعوبهم ، ويعلمونهم بسياساتهم ، هل بطريق الكتابة فقط ، أم بالحديث إليهم ؟

وهذا الحديث أياً كان شكله ، ألا يعد خطابة ؟ ينفى الجاحظ الخطابة عن الهنود ، وينسب إليهم كتبا مدونة ، لا تضاف إلى رجل معروف ، وهذا

---

(1) السابق / ٢٨ .

كثير فى تراث جميع الأمم ، فما أكثر المصادر العربية التى لا يعرف أصحابهـــا ، وربما لم يصلنا من آداب هؤلاء الهنود إلا القليل .

كما أن الجاحظ ربما دفعته عصبيته لأمته وجنسه العـــربى إلى اســـتخدام أحكام كلية مطلقة ، من مثل قوله " كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هـــو عن طول فكرة " وهو حكم يقتضى استقصاء لجميع إنتاج الفرس البيانى ، ومثلـــه قوله " وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال .. " فهو حكم مطلق أيضا ، ربمـا يخرق إطلاقه مدارس المجودين والمحككين فى الجاهلية والإسلام عل الســـواء ، وفى قوله " وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله " ، وهـو حكم ربما خالف التطور الطبيعى للمجتمع البشرى ، والتطور الفطـــرى للعطـــاء الإنسانى ، إذ ينى اللاحق على جهد السابق ، ويطور المتأخر ما خلفـــه المتقـــدم ، ويحدو المعاصر على حذو المتقدمين ، شهد بذلك القدماء كعنترة فى قوله :

هل غادر الشعراء من متردم　　أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وقول الآخر : —

ما أرانا نقول إلا معـــــارا　　أو معـــــادا مـــن قولنا مكرورا

ويعتمد الجاحظ على تضعيف مصادر أدب العجم فى هذه القضية ، فيقول : ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى بأيدى الناس للفرس أنها صحيحـــة غـــير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة " .

وإذا ذكر الجاحظ ذلك فى زمانه عن آداب العجم ، فإن ميراثا إنسانيا أيـــا كان لا يكاد يسلم من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل ، والحذف والإضافة ، بل والافتراء والبهتان ، إلا ما كان محفوظا بحفظ الله — عز وجل — من وحى الســـماء ، قرآنا معجزا ، وسنة صحيحة ، وقد اشتهر فيما بعد فى أدبنا العربى قصة "النحـــل" والوضع ، وما نال أدبنا من هذه الظاهرة من شكوك وريب .

ولاشك أن معالجة الجاحظ — فى زمانه — لهذه القضية ، كانت سبقا رائـــدا ، وإذا شابها بعض التحيز للجنس العربى ، فربما لأنها سيقت فى أثناء الرد على افتراءات الشعوبية .

ولعل ذلك يلفتنا اليوم إلى ضرورة عقد مثل هذه الدراسات المقارنـــة بـــين الآداب القريبة واللصيقة بالأدب العربى وبين هذا الأدب ، وبخاصة الأدبين الفارســـى والتركى ، بروح جديدة ، تتواءم وطبيعة العصر الذى نعيش فيه .

المراجع

م	الكتاب	المؤلف	رقم الطبعة ودار النشر
١	البخلاء	الجاحظ	دار الكتب العلميـــــة – بيروت – سنة ١٩٨٣ .
٢	البداية والنهاية	ابن كثير	طـ ٢ – مكتبة المعارف – بيروت – سنة ١٩٩٠ .
٣	البيان والتبيين	الجاحظ	طـ٥ – تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجى – القاهرة سنة ١٩٨٥ .
٤	الصناعتين	أبو هلال العسكرى	تحقيق د . مفيد قميحـــــة – دار الكتب العلمية – بيروت
٥	عيون الأخبار	ابن قتيبة الدّينورى	طـ ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – سنة ١٩٨٦ م .